نظرية الأحمق الأعظم

Greater Fool Theory

دكتور/ صلاح عثمان (أستاذ المنطق وفلسفة العلم – رئيس قسم الفلسفة – كلية الآداب – جامعة المنوفية – جمهورية مصر العربية)

Salah Osman

(Menoufia University, Egypt)

salah.mohamed@art.menofia.edu.eg

DOI: 10.13140/RG.2.2.30257.04960

مقال منشور بموقع أكاديمية بالعقل نبدأ، القاهرة: ٥ أغسطس ٢٠٢٢

With Mind We Start, 2022, August 5.

«الأحمق الأعظم» The Greater Fool نظرية في علم الاقتصاد مؤداها أنه ليس من المُهم السعر الذي تشتري به الأصل، طالما أن ثمة أحمقًا ينتظر، وسيشتريه بسعرٍ أعلى. وبعبارة أخرى، تنص النظرية على أنه من الممكن بالفعل جني الأموال عن طريق شراء الأصول (حتى عندما تكون أسعارها مبالغًا فيها) ثم إعادة بيعها، حيث ستتمكن دائمًا من العثور على شخصٍ ما (أكثر حُمقًا) على استعدادٍ لدفع سعرٍ أعلى!

هذه النظرية شائعة جدًا بين المستثمرين الذين يستثمرون في أسهم الشركات؛ فالمستثمر الذي تنطبق عليه – عن علم أو عن غير علم – نظرية الأحمق الأعظم، من شأنه أن يشتري الأصول التي يحتمل أن تكون قيمتها مبالغًا فيها دون النظر إلى القيمة الفعلية لها، وكأنه يقول لنفسه: «إنني أحمق لأني أشتري بمثل هذا السعر الباهظ، لكنني سأجد أحمقًا أكبر سيكون على استعدادٍ لدفع أكثر مما دفعت»!

تتجلى النظرية بشكلٍ أوضح فيما يُعرف باسم «أسواق الفقاعة» Bubble Markets أو «اقتصاد الفقاعة» Bubble Economy، وهو وصف لحالة تحدث عندما تتسبب المضاربة على سلعةٍ ما في تزايد سعرها بطريقة تؤدي لتزايد المضاربة عليها، ومن ثم يبلغ سعر هذه السلعة مستويات خيالية، تمامًا مثلما تنتفخ الفقاعة، حتى تبلغ مرحلة الانفجار (الانهيار)، ويحدث هبوط حاد ومفاجئ في سعر هذه السلعة! وتحدث الفقاعات الاقتصادية عادةً في أسواق الفن والإسكان،

لكنها يمكن أن تمتد أيضًا إلى أسواق الأسهم، حيث يمكن أن يدفع المُضاربون في السوق ثمنًا للأسهم أعلى من قيمتها المعتمدة في نظام تقييم الأسهم نتيجة التحيزات المعرفية وسلوك القطيع، ومن ثم يحدث الانهيار المفاجئ. ولعل فقاعة جنون التوليب Tulip mania الهولندي في القرن السابع عشر هي أول فقاعة اقتصادية مسجلة في العالم، وذلك عندما تزايد الطلب على بصل زهرة التوليب بين الهولنديين، ما أدى إلى ارتفاع ثمنه إلى حدٍ غير مسبوق، ثم انهار سعره فجأة إبان العصر الذهبي الهولندي! كذلك من أشهر الفقاعات الاقتصادية تلك التي حدثت سنة ٢٠٠٠، وأُطلق عليها اسم فقاعة الدوت كوم Dot Com Bubble، حيث ارتفعت القيمة السوقية لبعض مواقع الإنترنت وأسهم الشركات التقنية لتصل إلى أرقام غير مسبوقة، ثم ما لبثت أن انهارت على نحو مفاجئ!

ثمة مقولة شائعة منطوقها: «ليس عليك أن تجري أسرع من الدب حتى تهرب، يكفيك فقط أن تجري أسرع من الرجل الذي بجانبك»، وتلك باختصار هي نظرية الأحمق الأعظم؛ أو كما عبَّر عنها المستثمر والملياردير الأمريكي «أوراكل بوسطن» Oracle of Boston («سيث أندرو كلارمان» Seth Andrew Klarman): «قد تجد مشترٍ بسعر أعلى – أحمق أعظم – أو قد لا تجد، وفي هذه الحالة تكون أنت الأحمق الأعظم»!

في العام الماضي (٢٠٢١)، بيعت إحدى لوحات الرسام الأمريكي «مارك روثكو» Mark Rothko (١٩٠٣ – ١٩٧٠) بمبلغ ٨٢,٥ مليون دولار. ورغم ما قد تُمثله اللوحة من قيمة فنية تنم عن موهبة تستحق التقدير، إلا أن ضخامة المبلغ المدفوع في قطعة من القماش والزيت الجاف تثير الدهشة! بعض الناس يستثمرون في الفن لأنهم يُحبونه، وبعضهم يفعل ذلك بهدف غسل الأموال، لكن تجارة الفن تُدر أرباحًا هائلة، والهدف الرئيس لدى أي مُستثمر (وفقًا لمنطق سوق المال) ليس العثور على عملٍ فني جيد، وإنما في العثور على حمقى يرغبون في رؤيته على أنه فنٌ جيد، وبالتالي شرائه بسعر أعلى دائمًا! المشكلة هنا أن البشر متقلبون بشكل ملحوظ؛ فما نعتقد اليوم أنه ذو قيمة، قد نعتقد غدًا أنه لا قيمة له!

من المؤكد أن كل مستثمر يعلم تمامًا أن الفقاعة التي تنمو على أساس التوقعات فقط سوف تنفجر عاجلاً أم آجلاً. ومع ذلك يريد الجميع الاستفادة من تلك الفقاعة، وعندما تنفجر تؤدي قطعًا إلى أزمة مالية، مثلما حدث في سوق الاستثمارات العقارية سنة ٢٠٠٩، حيث اتجه الناس في الولايات المتحدة إلى الاقتراض بكثافة من البنوك لشراء المنازل، مع توقع بيعها في المستقبل بسعر أعلى إلى أناسٍ أكثر حُمقًا. واستمرت هذه الممارسة لفترة طويلة، لكنهم أدركوا بعد ذلك أن الأسعار كانت مرتفعة للغاية، ولم يتمكنوا من العثور على المشترين الذين هم على استعداد لدفع سعر أعلى، ما أدى إلى سلسلةٍ من حالات التخلف عن سداد الرهون العقارية، وأجبر البنوك على شطب هذه القروض من ميزانيتها العمومية، وبالتالي الولوج في حالة طوارئ مصرفية!

على أن المثير للدهشـــة والتأمل هو تجاوز نظرية الأحمق الأعظم لحدود عالم الاقتصـــاد والمال، لتســـتغرق كثرة من مناحي حياة الإنســـان المعاصـــر اليومية؛ فالممارســـات الإعلامية المؤدلجة والمدعومة حكوميًا تُراهن دومًا – رغم حماقتها – على أن ثمة حمقى على اســـتعداد لتغييب العقل وتصـــديق الأكاذيب، بل والترويج لها لتغدو كفقاعات متعاظمة توشـك أن تنفجر، وهو ما نجده مثلاً في ترويج الإعلام المصري سنة ٢٠١٤ لجهاز «سي فاست» (الذي اشتهر باســـم جهاز الكفتة) والزعم غير المنطقي بقدرته على علاج مرضـــى فيروس ســـي وغيره من الفيروسات! كذلك الحال في فقاعات الدروس الخصوصية، لاسيما لمرحلة الثانوية العامة، حيث يبلغ متوســـط ما ينفقه المصـــريون، ممثلين في ٢٦ مليون أســـرة في جميع المحافظات، على الدروس الخصوصية، حوالي ٤٧ مليار جنيه من إجمالي الإنفاق على قطاع التعليم وفق بيانات الجهاز المركزي للتعبئة العامة والإحصاء، وهو ما يتناقض مع القيمة الفعلية للمنتج التعليمي في ســوق العمل المحلي والدولي، فإذا أضــفنا لذلك برامج الاعتماد والجودة في مؤســســات التعليم العالي، والتي تستهلك قدرًا ضخمًا من الوقت والجُهد والمال دون مردود فعلي (غير ورقي) على أرض الواقع، أدركنا كيف ينطوي نظامنا التعليمي على فقاعات قوامها حمقى يبيعون الوهم لحمقى ويراهنون دومًا على وجودهم!

تمتد نظرية الأحمق الأعظم كذلك إلى عالم الفن السينمائي والثقافة والرياضة ومواقع التواصل الاجتماعي؛ فحين تعجز النُخب عن التواجد والتأثير الفعلي يصير حضورها شبكيًا أو افتراضيًا في صـــورة فقاعات متتالية (حفل غنائي قيمة تذكرته تبلغ مائة ألف جنيه، لاعب يتنازع عليه فريقان ويرصدان لشرائه ملايين الجنيهات، ممثل أو مغني يحصد الملايين في بلد تعصف به الأزمات الاقتصادية مقابل فنٍ هابط، أستاذ جامعي ينغمس في مجموعات افتراضية للتواصل بُغية تحقيق الذات الخاوية والمفتقدة بالفعل على صـــعيد العطاء الفكري، ... إلخ)، والجميع في النهاية (إلا ما رحم ربي) يتخذون من الحماقة ســـبيلاً، ويُراهنون بقوة على أن ثمة من هم أكثر حُمقًا منهم!

الشاهد، في سنة ٢٠٠٤، أدى تسونامي المحيط الهندي قبالة الساحل الغربي لشمال سومطرة Northern Sumatra (المعروف باسم تسونامي يوم الصناديق Boxing Day Tsunami لأنه حدث يوم ٢٦ ديسمبر، وهو يوم عطلة عيد صناديق الهدايا في المملكة المتحدة) إلى قتل ما يقرب من ٢٣٠ ألف شخص في أربع عشرة دولة. لم تساعد كل علوم الحضارة الغربية في التنبؤ بالكارثة أو منع الخراب والموت. لكن أحد الجوانب المثيرة للاهتمام في هذا التسونامي هو أنه لم يقتل أي فرد من القبائل الأصلية، وبالعودة إلى «نظام إدارة المخاطر» الخاص بهم، وُجد أنه يشمل سلوك حيواناتهم: لقد استنتجوا من سلوك الحيوانات قبل التسونامي أن شيئًا سيئًا على وشك الحدوث،

فانتقلوا مسرعين إلى الداخل قبل الكارثة؛ لقد طبقوا الحكمة بدلاً من المُضي قدمًا كقطيع في نفخ فقاعات الوهم!

الحكمة منهجٌ مثالي، ينطوي على الرغبة في التعلم وبذل الجهد والمحاولة والفشـــل، وهي ليست وجهة، بل رحلة مستمرة، وأفضل ما يمكن أن نأمله إن أردنا أن نتجاوز فقاعات الوهم هو تجنب الحماقة، فلكل داءٍ دواءٌ يُستطب به، إلا الحماقة أُعيت من يُداويها!

***

- **توثيق المقال بنظام APA:**

عثمان، صلاح (٥ أغسطس ٢٠٢٢). «نظرية الأحمق الأعظم». أكاديمية بالعقل نبدأ، القاهرة. تم الاسترداد بتاريخ ٢ أكتوبر ٢٠٢٢ من:

https://mashroo3na.com/إصدارات/مقالات/نظرية-الأحمق-الأعظم/

APA Citation:

Osman, S. (عثمان، ص) (2022, August 5). Greater Fool Theory (نظرية الأحمق الأعظم). Retrieved October 2, 2022, from https://mashroo3na.com/إصدارات/مقالات/نظرية-الأحمق-الأعظم/

***